

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٢١ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

سميت بذلك لاشتغالها على فضائل جلييلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهي مكية .  
واستثنى منها بعضهم آية<sup>(١)</sup> ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا )  
وهي مائة واثنى عشرة آية . وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل  
والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تлады .  
قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذى ولد  
عندك ، وهو تقيض الطارف .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أُقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« أُقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخرى وهو عذابهم « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذبون به . وإنما كان مقتربا لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى (١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا \* وَنَرَاهُ قَرِيبًا) وقال تعالى (٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفریطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فى العنوان ما يرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدينوى والأخرى لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم ، كما أشير إليه فى آية (٣) (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ) ووعد به النبى وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرى ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ)

(١) [ ٧٠ / المعارج / ٧٥٦ ] .

(٢) [ ٢٢ / الحج / ٤٧ ] .

(٣) [ ٥ / المائدة / ٥٢ ] .

« مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقرّيع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكل تذكر ، وينبه على الغفلة أتم تنبيهه ، أن تخشع له القلوب وتستخذى له الأنفس .

قال الزمخشريّ : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون . فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التي هي أحق الحق وأجد الجدد ، إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

#### تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع . وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية . فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف . فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً ، أنه موجود لتلك الحروف والأصوات في الجسم . كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبي عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية ، التي هي الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلغوها إلى أممهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرة ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رأها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلط، وعبارته في كتابه ( مطابقة المنقول للمعقول ) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم . والحديث في لغة العرب العام ليس هو الحديث في اصطلاح أهل الكلام . فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً ، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن . كقوله تعالى (١) ( كَأَلْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ) وقوله تعالى (٢) عن إخوة يوسف ( تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ) وقوله تعالى (٣) ( وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونَهُ هَذَا آفِكُ قَدِيمٍ ) وقوله تعالى عن إبراهيم (٤) ( أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ \* أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ) انتهى .

وقال العارف ابن عربي في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من ( فتوحاته ) في هذه الآية : المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سَمِعُوهُ . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثه تعلق السمع بها . فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات . فله الحديث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذن الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً ( إِنَّهُ وَ ) يعني القرآن (٥) : ( لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) فأضاف الكلام إلى الواسطة

- (١) [ ٣٦ / يس / ٣٩ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٩٥ ] .  
 (٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ١١ ] . (٤) [ ٢٦ / الشعراء / ٧٥ و ٧٦ ] .  
 (٥) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٠ ] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله<sup>(١)</sup> : ( فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السامعين بعد المشرقين . فإن الذي يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية في ( منهاج السنة ) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً . وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع<sup>ك</sup> والعقل ومن لم يقل إن الباري يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويحىء - فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى في الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول<sup>(٢)</sup> ( فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ ) وقال<sup>(٣)</sup> ( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال ثم قال رحمه الله : قالوا - يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرها - وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [ ٩ / التوبة / ٦ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٨ ] . (٣) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

أنكر هذا قبلكم من الساف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكروه فلم يعرف لوازمه وملزوماته . وانفظ ( الحوادث ) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزّه عن ذلك . ولكن يقوم به ماشاء ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهى وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات مقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى وخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لَمَّا كان أزيماً لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالتقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على النظم «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ» أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله «وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشري رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملكا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«قَالَ رَبِّي» حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه «يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ» أى لما أسروه «الْعَلِيمُ» أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْضَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ  
كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ )

« بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْضَمٌ » أى أخلطها في النوم « بَلِ افْتَرَاهُ » أى اختلقه  
« بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاحقيقة لها . وهكذا شأن البطل  
المجوج ، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ  
كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ » أى مثل الآية التي أرسل بها الأولون . أى حتى نُؤمِّنَ له . ثم أشار  
تعالى إلى كذبهم في دعوى الإيمان بحجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله  
سبحانه وتعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ( مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ )

« مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم  
المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات . أفهؤلاء يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سألوا ، وأعطوا  
ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء  
عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقد مننا أن  
رقى النوع البشرى في العهد النبوى ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية . فتذكر  
ثم أوضح جواب شبهتهم في منافاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ  
إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء « فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ » أى العلماء بالتوراة والإنجيل « إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفي الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجج الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازى : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعالى أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر - فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بين تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ )

« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى<sup>(١)</sup> ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) وفى هذا التعريف الزباني عن حال المرسل ، أ كبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والعامة والحقى ومن لا يزن عند ربه جناح بموضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى الجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوامد لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأفنون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشى بالأسواق ، وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها . ومحافضة على السمعة حموا جانبها .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٠ ] .

فتباً لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا الله . فما أجرهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار ! وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى<sup>(١)</sup> ( وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل . تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وكونهم بشراً من تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن الرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ )  
 « ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم<sup>(٢)</sup> ( كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ) « فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن ، محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )  
 « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحديثكم الذى تذكرون به فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى<sup>(٣)</sup> ( وَإِنَّهُ وَلِذِكْرِكَ لَاقَوْمٌ ، وَسَوْفَ يُسْأَلُونَ ) وقيل : معنى ( ذِكْرُكُمْ ) موعظتكم  
 (١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٤ ] . (٢) [ ٥٨ / المجادلة / ١٢ ] . (٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٤٤ ] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق الفظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) إنكار توبيخي ، فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب ، والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لا إجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ )

[١٢] ( فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ )

[١٣] ( لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ )

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ \* فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ » أي عذابنا النازل بهم « إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » أي يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال « لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ » أي من التمتع والتلذذ و ( في ) ظرفية أو سببية « وَمَسْكِنِكُمْ » أي التي كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ )

[١٥] ( فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ )

[١٦] ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينَ )

« قَالُوا » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ \* فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى تلك الكلمة وهى ( يا ويلنا ) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى كنبات محصود « خَمِدِينَ » أى هالكين ياخذ نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادِنَا » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشري عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبارة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بهامن المنافع التى لاتعد والمرافق التى لاتحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتعبة للغايات الجميلة . وتنبيه على أن ما حكي من العذاب الهائل والمقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل ( لَمَّيِّنًا ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى (١) ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) وقوله تعالى (٢) ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .

وقوله تعالى :

(١) [ ١١ / هود / ٧ ] . (٢) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » استثناء مقرر لما قبله من انتفاء اللعب والهوى . أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبارة في رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة . فيستحيل اتخاذنا له قطعاً . وقوله تعالى « إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إِنْ ( إِنْ ) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ الهوى ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ أَلْوَيْلٌ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ » إضراب عن اتخاذ الهوى بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ الهوى واللعب أو زيده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُ » أى يحققه بالكلمة كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلمة . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل ( القذف ) الذى هو الرى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولحقه للباطل ( الدمغ ) الذى هو كسر الشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهب ، بزمى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز . لأن من رى قدمغ ترهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى ( إذا ) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفي الآية إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ « وَلَكُمْ أَوْلِيَاؤُا لِمَا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تنزهه عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً ، وبراءتهم من البُتوة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ )

« وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ملكاً وتديراً « وَمَن عِنْدَهُ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعيون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ )

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة - فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَمْ أَلْتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ )

« أَمْ أَلْتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بعمزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟  
 قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكروا عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا  
 يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم  
 لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض <sup>(١)</sup> (وَلَيْنَ سَاءَ لَتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث .  
 ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم <sup>(٢)</sup> ؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر  
 كثاني القديم . فكيف يدعونه للجهد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .  
 قلت : الأمر كما ذكرت . ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإناشار .  
 لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإناشار من جملة المقدورات . انتهى .  
 قال في ( الانتصاف ) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في  
 الإنكار .

ثم قال الزمخشري : وفيه باب من التهمك بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن  
 ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء  
 والإعادة . انتهى .

#### لطيفة:

سر قوله تعالى ( مِنَ الْأَرْضِ ) هو التحقير ، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية .  
 وجوز إرادة التخصيص . أي الآلهة التي من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض  
 الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضي  
 مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على  
 انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٧٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ )

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا » أى يتصرف فى السموات والأرض « ءَآلِهَةً إِلَّا اللَّهُ » أى غيره

« لَفَسَدَتَا » أى لبطلتا بما فيهما جميعاً ، واختل نظامهما المشاهد ، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون) <sup>(١)</sup>

( وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ مِمَّا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ) قال

أبو السعود : وحيث اتفق التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة ؛ أن الإلهية مستلزمة

للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجاداً وإعداماً وإحياء

وإماتة . فبقاؤها على ماها عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع العلول المعين

بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقي بعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل

التالى فسادها بعد وجودها ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى

باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تمدد الإله ، فإن توافق السكل فى المراد ، تطاردت

عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث اتفق التالى تعين انتقاء

المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى ( المقاصد ) أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً

كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا . وكلاهما محال . أما الأول فلأنه

لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين .

أو لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكال القدرة على ماهو

المفروض ، ولأستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلق المحل عنهما ، كحركة جسم

وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح

بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع .

وإليه الإشارة بقوله تعالى ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَآلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٩١ ] .

التكوت ، فتقريه أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تتكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخرا فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عماها عليه من النظام ، فتقريه أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العادي . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذي باعتباره صار الشكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذي به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانيّ ، والمشار إليه في الآية إقناعيّ . ولا يفيد العلم اليقينيّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب ، ومن فصل ذلك التفتازانيّ في ( شرح العقائد النسفية ) قادحاً لما أشار إليه نفسه في ( شرح المقاصد ) من كون الآية برهاناً ، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام ، أي بالاشتراك أو بتفويض أحدها إلى الآخر فلا يستلزم التعدد التمانع بالفعل بل بالإمكان . والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادها . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل في كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين ، فيلزم معجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالمادة القاضية التي لم يوجد أكرمها قط في ملكين مقتدرين في مدينة واحدة ، أن يطلب كلٌّ الانفراد بالملك والعلو على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله ( وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ) ؟ وهذا إذا تؤمل لاتكاد النفس تحظر نقيضه بالبال ، فضلاً عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر .

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعى . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى . وقد شنع عليه فى مقالهته المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرماني فى الانتقاد .

قال العلامة المرجاني : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفي فى كتابه ( التبصرة ) وتابعه صاحب ( الكشف ) حيث شنع على أبي هاشم الجبائي تشنيعاً بليغاً . حتى نسبه إلى الكفر بقده فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لاتقف عند حد . ولا تزال تباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله ( التوحيد ) إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعللاً . وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بيننا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجود الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكما اختلفت التعمينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تعين وتنال بتحقيقها الخاص بها ، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلازمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا أمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كلٍ صادراً على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته . ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى . فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات . لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممنوع بالبداهة . فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالي في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا يبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكليني: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكوينها في الأصل كما قالوا . ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهي بمبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدالاتها تنفي تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أي من وجود شرك له فيهما . والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم . أي فسبحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم الباري لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ )

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْأَلُونَ » الضمير للعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله<sup>(١)</sup> ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) . قال الزمخشري : إذا كانت عادة الملوك والجيابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيئاً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم ، أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ، ولا يجوز عليه خطأ ، ثم قال ( وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاؤون . فأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ) .

#### تنبية

قال الإمام الغزالي في ( المضمون به على غير أهله ) : وأما معنى قول الله تعالى ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) وقوله تعالى<sup>(٣)</sup> : ( لِمَ حَشَرَ نَبِيَّ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار ، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام . وهو المعنى بقوله ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ) إذ لا يقال ( لِمَ ) قول إلزام . فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله ( لِمَ حَشَرَ نَبِيَّ أَعْمَى ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ )

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩٣ و ٩٢ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٨٨ ] .

(٣) [ ٢٠ / طه / ١٢٥ ] .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ مَعَاءِ الهَةِ » كرهه استعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى دليلكم على ما تفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهمكهم بهم . وقوله تعالى « هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِى » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به أسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهيبج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحي الوارد فى شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلى ، ذكر أمتى أى عظمتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقتته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ الْحَقَّ فَمُهمْ مُعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ )

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ » وقرئ ( يُوحَى ) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . كما قال (١) ( وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ الهَةَ يُعْبَدُونَ ) وقال (٢) ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ( فَكُل نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لِشَرِيكَ لَهُ . وَالْفِطْرَةَ شَاهِدَةً بِذَلِكَ أَيْضًا ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ وَحُجَّتِهِمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى بِطَلَانٍ مَا يَفْتَرِيهِ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُهُ ، تَعَالَى عَلَوًّا كَبِيرًا ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ )

[٢٧] ( لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ )

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى مقربون « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين « وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى

وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ )

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علماً<sup>(١)</sup> ( وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال الميرزا : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدر على أدنى وجوه معارضة . لأنهم لا يشفعون

(١) [ ٢ البقرة / ٢٥٥ ] .

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله (١) « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى » كقوله (٢) « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله (٣) « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » في آيات كثيرة في معنى ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ )

« وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » الضمير في ( منهم ) للملائكة . لتقدم ذكركم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ في الرد والتهديد .

قال الزمخشري رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال (٤) « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » قصد بذلك تفضيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفي قوله ( كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٥٥ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ / ٢٣ ] .

(٤) [ ٦ / الأنعام / ٨٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ،  
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ )

« أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا  
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع في آياته الكونية ، الدالة على وحدته في أوهيته ، التي عمى عنها المشركون ، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تخرولا تنبت ( فَفَتَقْنَاهُمَا ) أى بالمطر والنبات . فالفتق والرتق استعارة . ونظيره قوله تعالى (١) ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ \* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ) و ( الرجع ) لغة هو الماء و ( الصدع ) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشقها . وقوله تعالى (٢) ( فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ) أى كيف انقردنا في إحدائه وتهيئته ليقم بنيته (٣) ( أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ) أى من المزن بعد أن لم يكن (٤) ( ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقًا متماسكة الأجزاء ، شققناها شقًّا مرئيًّا مشهودًا ، كما تراه في الأرض بعد الري . أو شقًّا بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى (٥) ( فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وكقوله (٦) ( قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق) .

قال الرازي : وتحقيقه أن العدم نفي محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة . بل

- (١) [ ٨٦ / الطارق / ١١ و ١٢ ] . (٢) [ ٨٠ / عبس / ٢٤ ] .  
(٣) [ ٨٠ / عبس / ٢٥ ] . (٤) [ ٨٠ / عبس / ٢٦ ] .  
(٥) [ ٦ / الأنعام / ١٤ ] . (٦) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٦ ] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن . جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى ( كَانَتْ رَتْقًا ) أي شيئاً واحداً . ومعنى ( فَفَتَقْنَاهُمَا ) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أي أنها إحدى هذه السيارات . وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالـكواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هي متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اه كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده ( وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى ( أَوَلَمْ يَرَ ) بصرية . وعلى قول أبي مسلم وما بعده ، إعلامية . على حد قوله تعالى لنبيه صلوات الله عليه (١) ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ) . مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحججة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلموه .

ومعنى قوله تعالى ( وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء ، لا يحيا دونه . فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى . كقوله تعالى (٢) ( وَيُخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ) وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية (٣)

(١) [ ١٠٥ / الفيل / ١ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ١٩ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٤٥ ]

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة، وأبلغ في الخطاب ، وألطف في المعنى .  
 وقوله تعالى ( أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور ما يوجب حتما من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جيالاً ثوابت « أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » أى لثلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لسكانت الأرض دائماً الاضطراب مما فى جوفها من المواد الداعة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير فى (فيها) للأرض . وتكرير الفعل لاختلاف المعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثانى اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه نجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى ( وَسُبُلًا ) بدل من ( فِجَاجًا ) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أى إلى مصالحهم .  
 وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ )

« وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا » أى على الأرض كالقبة عليها « مَّحْفُوظًا » أى عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كتقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَبَيِّنَا فَوْقَكُمُ سَبْعًا شِدَادًا ) « وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسارها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبه ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرى<sup>(٢)</sup> ( عن آيتها ) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحیوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ )

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَالنَّهَارَ » ليتحركوا المعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ضياء وحساباناً « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسباح فى الماء . و ( الفلك ) فى اللغة كل شىء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية<sup>(٣)</sup> ( فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ \* الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اه . وقوله تعالى :

(١) [ ٧٨ / النبأ / ١٢ ] . (٢) [ ٨١ / التكویر / ١٦ و ١٥ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ )

« وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ » نزلت حين قالوا ( نتربص به رب المنون ) فكانوا يقدرون أنه سيموت ، فيشتمون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشكاة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله <sup>(١)</sup> ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ وَاخِرُونَ ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بجيِّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليّاً ، أو نبياً أو رسولاً . انتهى .

وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر . وفي معنى الآية قول عروة الصحابي <sup>(٢)</sup> :

رضى الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ      كَلَّا كَلَهُ أَتَاخَ بَاخِرِينَا  
فقل للشَّامِتِينَ بنا : أفيقوا      سيلقى الشَّامِتُونَ كما لقيْنَا

وقول الشافعي :

تَمَنَّى أَنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أُمَّتُ      فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ  
فقل للَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى :      هَيِّئْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا ، وَكَأَنَّ قَدِ

(١) [ ٢٥ / الحجر / ٩ ] . (٢) قال صاحب ( رغبة الآمل ، من كتاب الكامل ) :

قائلهما هو فروة بن مسيكة المرادي انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ» أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، وما يجب فيه الشكر من النعم «فِتْنَةً» أى اختباراً. وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظه «وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» أى فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. قال الزمخشري : وإنما سمي ذلك ابتلاءً ، وهو علم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضي : وفي الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ  
بِآيَاتِنَا وَمُتَّبِعِينَ) «وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ  
بِآيَاتِنَا وَمُتَّبِعِينَ»

«وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ بِآيَاتِنَا وَمُتَّبِعِينَ» وهم يذكروا الرحمن هم كافرين» عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبي جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيط لسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى (١) «وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا \* إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وإضافة ذكر ( للرحمن ) من إضافة المصدر لفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن هم كافرين، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ )

« خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك ( خلق زيد من السكرم ) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع هو منه من الأركان ، إيداناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن ( مجلته ) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُورِيكُمْ آيَاتِي » أى نقمها في الدنيا كوقعة بدر . وفي الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الموعد من العذاب الأخرى ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لاتعيين وقته « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشري : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الممجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس يبدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيةكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفضاعة ما فيه ، وأن مجلتهم لجهلهم بمقبته ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٧ / الإمراء / ١١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ )

[٤٠] ( بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ )  
« لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ »

أى لا يدفونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » أى بدفع أحد عنهم . وجواب ( لو ) محذوف أى : لما استعجلوا . وقيل ( لو ) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيرهم . [ لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يميلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ )

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ، على وضع السبب موضع السبب ، إيذاناً بكمال الملايسة بينهما ، أو عين استهزائهم ، إن أريد بذلك العذاب الأخروي ، بناء على تجسم الأعمال .

فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز في النشأة الأخرى بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( قُلْ مَنْ يَكَلِّؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ )

[٤٣] ( أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ )

« قُلْ مَنْ يَكَلِّؤُكُمْ » أى يحفظكم « بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم ( الليل ) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً . وفي لفظ ( الرحمن ) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته . كغضب الحليم . وتقديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايى : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يفترقون في ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعها عن ذلك « بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ » أى لا يخطر ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسألوا عن الكالى « أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجل ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللتنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالفصر والتأييد . أفاده

ابن جرير<sup>(١)</sup> . ف ( فيصحبون ) بمعنى يجارون يقال ( صحبتك الله ) أى أجازك وسلمك ، كما فى ( الأساس ) . قال<sup>(٢)</sup> ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوارج لأن العرب محكى عنها ( أنا لك جار من فلان وصاحب ) بمعنى أجزرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٤٤ ] ( بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ )

« بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » إضراب عما توهموا ، ببيان أن الداعى إلى غيرهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لآثمتهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى نقص أرض الكفر ففخر بها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلالهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن نزل من بأسنا بهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك بمن أهل الأطراف . أفاده<sup>(٣)</sup> ابن جرير . وهذا كقوله تعالى<sup>(٤)</sup> ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ »

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٧ ] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقدرأوا قهرنا من أحللتنا بساحته  
بأسنا في أطراف الأرض ؟

وفي التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ )

« قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ » أى تنزيل الله الذى يوحيه إلى من عنده وأخوفكم  
به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون ، لأن ذلك ليس إلى ، على ما فيه من الحكمة فى هذه البعثة  
التي بنيت على البراهين العقلية ، لا الحارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم  
وعنادهم ، بأن هذا الإنذار لا يجديهم ، بقوله تعالى « وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ »  
أى فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر ما فى وحى الله من المواعظ والذكرى ، فيتذكرون بها  
ويعتبرون فينزعجون إذا تلى عليهم ، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه ، فعل الأصم  
الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله ( إِذَا مَا يُنذِرُونَ ) مع أنهم  
لا يسمعون نذارة ولا بشارة ، إما لأن المقام مقام إنذار ، أو لأن من لا يسمع إذا خوف ، كيف  
يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَلَئِن مَّسَّسَهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ )

« وَلَئِن مَّسَّسَهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى  
ولئن أصابهم أدنى شيء من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى  
التصام والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

في صدر الآية مبالغات. ذكر المس. وما في النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب  
رأحة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتفكير. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ  
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ )

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أى  
نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل  
لإرصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال  
ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة . كأنها فى  
نفسها قسط . أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم  
القيامة) للتعليل أو بمعنى ( فى ) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ  
شَيْئًا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِنْ كَانَ »  
العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمِثْقَالَ  
حبة الخردل . للوزن . وأنت لإضافته إلى الحبة « وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » أى وحسب من شهد  
ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سبيء ،  
منا . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع في قصص الأنبياء ، تسلية له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفقده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى (١) (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ) إلى قوله (الْمُسْرِفِينَ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناء بضمونه . والمراد بـ(الفرقان) التوراة وكذا بـ(الضياء) (الذكر) . أى وبالله لقد آتيناها وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل وذِكْرًا يتعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ» أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التي تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَهَذَا » أى القرآن الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كابتاء

التوراة . وفي الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (أه) للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتينا . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناها إياها ، فأهلناها لملتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحفيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها ، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوى متبّع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ ( فى ) الظرفية دلالة على تمسكهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من ( ضالين ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ \* قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » قال الزمخشري رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسَّمَوَاتِ والأرض أو للتماثيل . وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلائله صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقاتلهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم <sup>(١)</sup> (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَكَفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَبُّكُمْ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِنَ الشَّاهِدِينَ) أى المبرهين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاقل منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ)

« وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جَذَاً » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لا تتحلم إلى هذا الحد. فهو عجزهم في الدفع عن أنفسهم . فتوقّع عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بالهتيم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه في ذلك . فضلاً عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ وَ لَمِنَ الظَّالِمِينَ )

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ وَ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لجرأتها على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتمعظيم . أو لإفراطه فى التجديذ والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] ( قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ إِبْرَاهِيمُ )

[٦١] ( قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ )

« قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ إِبْرَاهِيمُ \* قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا الحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهِنَا يَا بَرَاهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

«قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهِنَا يَا بَرَاهِيمُ \* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ وَكَبِيرُهُمْ هَذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله « فَسَأَلُوهُمْ » أى يجيبوكم « إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ » أى والأظهر عجزهم الكلى المانع من القول بإلهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه عن إزمامهم الحجة ، وتبكيهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانتها بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُ وَكَبِيرُهُمْ هَذَا) فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى<sup>(١)</sup> (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيل له ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

(١) [٤٤ / الذخآن / ٤٩] .

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، قصداً إلى تحقيق ذلك. وجلي أن مراده عليه السلام، على كلِّ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبي عنه قوله (فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا. قال أبو السعود: وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل. وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٤] (فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم. ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، لا من كسرهما، فلم تنسبوه إلى الظلم بقولكم (إِنَّهُ وَلِمَنِ الظَّالِمِينَ)؟

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

« ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياءً من نقصهم، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ » أى ليس من شأنهم الفطخ، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ)°

[٦٧] (أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ \* أَفِ لَكُمْ وَلِمَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى قبح صنيعكم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر في الكشاف في قوله تعالى ( ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ ) أربعة أوجه . وحاصلها

كما في العناية - أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن

الفكرة المستقيمة في تطليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها ، مع عجزها

فضلاً عن كونها في معرض الألوهية . فقوله ( لَقَدْ عَلِمْت ) معناه لم يخف علينا وعليك

أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله ( أَفَتَعْبُدُونَ ) الخ ، أو أن

التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق في قولهم ( لَقَدْ عَلِمْت ) لأنه نفى لقدرتها

واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية ، وسمى (نكسا) وإن كان حقاً ، لأنه ما أفادهم مع الإصرار .

ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة في إطراقهم خجلاً

وقولهم ( لَقَدْ عَلِمْت ) لخيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم . أو النكس مبالغة في الحيرة وانقطاع

الحجة . و ( أف ) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما في كتب

اللغة . قال الزمخشري : أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح

الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ولما عجزوا عن الحاجة أخذوا في المضارة ، شأن

المبطل إذا قرعت شبيته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من الحق . ولم يبق له مفرع إلا

مناصبته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ )

« قَالُوا حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به  
« وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة ،  
فلا يليق به غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ )

« قُلْنَا » أى تعجزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له في إنجاء من  
آمن به « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَامًا  
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى ولا تنتهى في البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة . وجوز  
كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما في قوله<sup>(١)</sup> ( كُونُوا قِرَدَةً )  
ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بأمور مطيع ، وتخيلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم :  
المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً ، كقوله<sup>(٢)</sup> ( أَنْ يَقُولَ  
لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيكونه . فإن النار جماد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازى : لهم في كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها - أن الله تعالى أزال عنها  
ما فيها من الحرّ والاحتراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شيء قدير .  
وثانيها - أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه .  
كما يفعل بحزنة جهنم في الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد  
المحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار .

(١) [٢ / البقرة / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

وثالثها - أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه .  
قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله ( يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا ) أن نفس النار  
صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ )

[٧١] ( وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ )

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ،  
فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشري : غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمسكت .  
وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى  
الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء  
وإزالة الشرائع التى هى طريق السعادتین . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنى  
والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم . ثم بين بركته  
تعالى على إبراهيم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَوَهَبْنَا لَهُ - وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ )

« وَوَهَبْنَا لَهُ - وَاسْحَاقَ » أى بدعوته<sup>(١)</sup> ( رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ) « وَيَعْقُوبَ  
نَافِلَةً » أى زيادةً وفضلاً من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح  
بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله<sup>(١)</sup> ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذنا . قال الزمخشري : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، وأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخلّ بها ويتناقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( وَلَوْ طَآءَ أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَايِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ )  
[٧٥] ( وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ )

« وَلَوْ طَآءَ أَتَيْنَاهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغي علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ » أى من عذابها « الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَايِثَ »

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

يعنى اللوطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطى منكساً من مكال عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ \* وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » أى فى أهلها « إِنَّهُ وَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَ حَا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ )

« وَنوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ » أى دعاربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله<sup>(١)</sup> ( أِنِّى مُغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ )<sup>(٢)</sup> ( رَبِّ لَا تَذَرْنِى عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ) « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَمِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ )

« وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتبهاً للانتصار والانتقام من قومه « الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيهم .

(٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

(١) [٥٤ / القمر / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلاً « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ )

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحكومة، المفهومين من السياق « سُلَيْمَانَ » أى فسكان القضاء فيها قضاءه ، لاقضاء أبيه . روى<sup>(١)</sup> عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل ، فقاضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذ أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرفوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » أى وكل واحد منهما آتيناها حكمة وعلماً كثيراً ، لاسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكماً شرعياً .

(١) انظر ابن كثير . الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

### تدريبات :

الأول - استدلال الآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بين في الأصول . ورد بأن مفهوم قوله ( **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام ، يدل على أنه المصيب للحق عند الله . ولولا ذلك لما كان لتخصيصه بالفهم معنى . والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه ، دل على أن كلامهما مصيب . وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود عليه السلام ، لجواز كون كل مصيباً . ولكن هذا أرفق وذاك أوفق ، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدلال بهذه الآية كل . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا في ( العناية ) .

وجاء في ( فتح البيان ) مأمثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين<sup>(١)</sup> وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبي ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين . وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فاللزوم مثله . وأيضا يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها الاجتهاد المجتهدين ، بالحل والحرمه ، حلالا وحراما في حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فاللزوم مثله . وأيضا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاد في تلك

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام - ٢١ - باب أجر الحاكم إذا اجتهد

فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث رقم ١٥ ( طبعتنا ) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريد الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانتطاع المجتهدين . واللازم باطل فاللزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرّون على إصابة الحق في كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب .  
قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثاني - دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان بالوحي لما أوتر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى (١) ( عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ) فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه . ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله (٢) ( لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحي ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضا ، فلا استنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

قال الرازي : إذا غلب على ظن نبي أن الحكم في الأصل معتل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلو عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الرجح وهو

(١) [ ٩ / التوبة / ٤٣ ] . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ،

٨١ - باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ ، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ ( طبعنا ) .

باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على الرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس - وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس . وهي قائمة أيضا في حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في ( الإكليل ) : استدلت بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثبت عليهما . وقد تقدم أولا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمنين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النقش لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهرى وقتادة . ومن عم الضمان فسره بالرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكى به سليمان في هذه الواقعة . إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى <sup>(١)</sup> ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شيئا هذا قطعت غزلا لي . فقال شريح : نهارا أم ليلا ؟ فإن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه <sup>(٢)</sup> الإمام أحمد وأبو داود <sup>(٣)</sup> وابن ماجه <sup>(٤)</sup> من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب

- (١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .  
 (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) .  
 (٣) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٩٠ - باب المواشي تفسد زرع قوم ،  
 حديث رقم ٣٥٧٠ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٣ - باب الحكم فيما أفسدت المواشي ، حديث رقم ٢٣٣٢ ( طبعتنا ) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . ففوضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عكّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاه الحسن ، فبكي . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى ( وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ . . . ) الآية . فأثني الله على سليمان ، ولم يذمّ داود . ثم قال ( يعنى الحسن ) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثة : لا يشترؤا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا (١) ( يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) وقال (٢) ( فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ ) وقال (٣) ( وَلَا تَشْتَرُوا بِأَيْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ) . ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح (٤) البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ ( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ) فهذا الحديث يردّ نصّا ما توهمه إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار . وفي السنن (٥) : ( القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . رجل علم الحق

(١) [ ٣٨ / ص / ٢٦ ] . (٢) [ ٥ / للمائدة / ٤٤ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ٤٦ ] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ٢ - باب فى القاضى يخطى ،

حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بريدة .

وأخرجه ابن ماجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ،

حديث رقم ٢٣١٥ ( طبعنا ) .

وقضى به فهو في الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار).

ثم بين سبحانه ما خص كلام من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ » أي سخرنا الجبال والطير يقدرن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخَلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه ( الزبور ) وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا للمامر<sup>(١)</sup> النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لخبرتك لك تحبيراً .

وقال أبو عثمان الهندي : مسمعت صوت صنج ولا يربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز . لأنها جماد . والتذييل بقوله ( وَكُنَّا فَاعِلِينَ ) إشارة إلى أنه ليس بيدع في جانب القدرة الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيبياً . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (ص)<sup>(٢)</sup> (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ \* إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ \* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ ) .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٣١ - باب حسن الصوت

بالقراءة ، حديث رقم ٢٠٩٧ .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا)

(٢) [ ٣٨ / ص / ١٧ - ١٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ)

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع اللبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفاًح ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى (١) (وَالنَّارُ لَهُ الْوَلْدَانُ ذُرِّيَّتَيْنِ وَأَسْوَءَ الْبَشَرِ الْأُولَىٰ إِنَّ أَعْْمَلَ سَابِغِينَ وَفِي السَّرْدِ) أى لا توسع الحلقة فتتعلق المسار . ولا تغلظ المسار فتتعد الحلقة . ولهذا قال « لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ » أى لنعلم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى المصاع حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقرير والتوبيخ ، لما فيه من الإيحاء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ)

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وهى بيت المقدس « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ » أى ماقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى (٢) (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) . قال الزمخشريّ رحمة الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيه أهدت به فى مدة يسيرة على ما قال (٣) (عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [٣٤ / سبأ / ١١ و١٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٦] . (٣) [٣٤ / سبأ / ١٢] .

أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال في (الانتصاف) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجاني منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَعْصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ )

« وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَعْصُونَ لَهُ » أي في البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » أي غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى<sup>(١)</sup> (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِجَانٍ) « وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ » أي مؤيدين ومعينين .

تنبية :

الشياطين المذكورون ، إما مرده الإنس وأشداؤهم ، وإما مرده الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائي : كيف يتهم لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدر على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد في عظمهم ، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۗ أَلَيْسَ لِي بِرَبِّهِ ۙ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )

[٨٤] ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۖ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ )

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۗ أَلَيْسَ لِي بِرَبِّهِ ۙ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ

فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۖ وَذِكْرَىٰ  
لِلْعَابِدِينَ » .

أى اذ كر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاؤه ربه في كشف ما نزل به، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه في رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر، وأن عاقبة العسر اليسر . وأن لك الأسوة بمثل هذا النبي الصبور، فيما ينزل أحياناً بك من ضرّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاءً . كما في الحديث (١) ( أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ) .

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها . لأن الدنيا ليست دار جزاء . وإن عاقبة الصديق في الصبر، هي توفية الأجر ومضاعفة البر . وقد روى أن أيوب عليه السلام، لما امتحن بما تقدمه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعانى من قروح جسده وآلام، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأتى أضعاف ما فقد . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى ( وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ) أى تذكرة لغيره (١) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء،

عن سعد .

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُعار من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواسمه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب. إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها. لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل. وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش. ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصل.

#### تفسيه .

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنياً من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائحة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت . ومن جبل سعيير بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ )

[٨٦] (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ )

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » أى على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى، ففيهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا» أى في النبوة أو في نعمة الآخرة «إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ» أى الكاملين في الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي .

وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُعَظِمًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ )

[٨٨] ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ )

« وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُعَظِمًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » أي اذكر ذا النون يعني صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على ما يقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة ( الصافات ) وفي سورة ( ن ) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى - من أرض الموصل ، كرسى سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاضم كفرهم وتزايد شرهم . فخشى أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر ، أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يقد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقدفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهياً الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى (١) ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ )

### تفسيحات :

الأول - يونس عليه السلام يسمى في التوراة ( يونان ) وهو عبراني . ويقال إنه من جت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نبي قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني - أكثر المفسرين ( كما حكاه الرازي ) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإبائه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولاً ، أن يترك ولا يقاص . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبي كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في ( مغاضباً ) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضى بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد ( مفاعلة ) وقد استدلل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول الكرامية في المرجئة ( كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد )

(١) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] .

وقول الباقلاني من الأشعرية: (على ما حكاه ابن حزم في الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم في هذه الآية وأشباهاها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعية إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذي ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . وتقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل يذهبهم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه في الدنيا ، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال (في الكلام على يونس عليه السلام) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم بغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء ؟ فعملنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاه الله عز وجل . وأما قوله تعالى ( فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم ؟ ومن الحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك في أن من نسب هذا للنبي ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه

رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ( لا تفضلوني على يونس بن متى ) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وضح أن معنى قوله ( فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَأَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عزوجل ، محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب<sup>(٣)</sup> الحوت، فنعيم، نهى الله عزوجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاوله لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحقق الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها، للبت معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونونه خيراً وقربة إلى الله عزوجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه . فلما وضع النبى صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدرى أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوها توسعاً يميم رونق التركيب ونصاعة بلاغته . ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه المبديع . ولذا كانت آيه تأخذ بجماع القلوب رقة وانسجاما . وبلاغة وانتظاما . فلا ترى فى كله إلا المختارات لطفاً ، ولا فى جملة إلا الفخيمات تركيباً ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كنيائاته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب ، وقوة العتب وذلك لعمزة الجنب الإلهى والمقام الربانى . فالعربى البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء، ٣٥ - باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠ ، عن ابن عباس ، ونصه : ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى . (٢) [ ٨٩ / الفجر / ١٦ ] . (٣) [ ٦٨ / القلم / ٤٨ ] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه يبأبأه غاضب مولاه، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة. فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ. ووفلت فلا يحصر. فأتاه ما لم يكن على بال. ووقع في شرك قدرة المتعال، ثم تداركته النعمة، ولحفته الرحمة. هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً. فافهم ما ذكرته لك. فإنه يبلغك من التحقيق أملك.

الثالث: عدّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً. فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض. الذى له فى خلقه غرائب. ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجث، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم. وكتب آخر: لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس. ولعله فيما قال قوم من المحققين، من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم، واسع الحلقوم، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته، دون أن يشدخه أو يجرحه. حتى يبقى فى الإيمان أن يخرج منه وهو حيّ: ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاءه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت، ولبت ما الكارشده متمكناً من التسبيح والدعاء. انتهى.

الرابع: الجمع فى قوله (فِي الظُّلُمَاتِ) إما على حقيقة، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل. وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. أو هو مجاز، يجعل الظلمة لشدها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات. والمراد منها أحد المذكورات، أو بطن الحوت. وقدمه الزمخشري ونظره بآية<sup>(١)</sup> (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ).

الخامس: قوله تعالى (فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ) أى دعاؤه (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام<sup>(٢)</sup> (فَكَشَفْنَا) لأنه دعا بالخلاص من الضر. فالكشف المذكور يترتب على استجابته.

(١) [٢ / البقرة / ١٧]. (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨٤].

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته . وردّ بأن ( الفاء ) في قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيري . والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلوص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة ، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال . فلما أجمل في الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنباً . كما أشار إليه بقوله ( مِنَ الظَّالِمِينَ ) فما أوماً إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعدد تفسيراً له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله ( وَكَذَلِكَ نُحْيِي الْمُؤْمِنِينَ ) أى إذا كانوا في غموم ، وأخلصوا في أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى في الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذى ( دعوة<sup>(١)</sup> ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له ) . وقوله تعالى :  
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَرَبِّ لَا تَدْرِنِي قَرَدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ )

« وَزَكَرِيَّا » أى واذا ذكر خبره « إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَرَبِّ لَا تَدْرِنِي قَرَدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبياً ، ولا يتركه فرداً وحيداً بلا وارث ، وقد تقدمت القصة مبسوطه في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضا . وقوله « وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨١ - باب حدثنا محمد بن يحيى .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالي في ( شرح الأسماء الحسنى ) : الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بمد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقي بمد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ) « فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ » أي دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ » أي أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أي كانوا يبادرون في كل باب من الخير . وإيثار ( في ) على ( إلى ) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير . لأن ( إلى ) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أي ذوى رغب ورهب ، أو راغبين في الثواب راغبين للإجابة « وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ » أي محبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ )

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أي اذ كرنا التي أحصنته إحصاناً كلياً ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت<sup>(١)</sup> ( وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ) والتعبير عنها بالوصول ، لتفخيم شأنها ، وتزيهها عما زعموه في حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » أي نفخنا

(١) [ ٣ / آل عمران / ٤٧ ] و [ ١٩ / مريم / ٢٠ ] .

الروح في عيسى فيها . أى أحييناه في جوفها . فنزل نفخ الروح في عيسى ، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أى أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بمض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذى نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا » أى نبأها « آيَةً لِلْعَالَمِينَ » أى في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه . وتشمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمة والأبرص .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هلا قيل (ءَايَاتِينَ) كما قال (١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَاتِينَ) ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فخل . انتهى . وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا آيَةً وابنها آية . مخذفت الأولى للدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

« إِنَّ هَذِهِ » أى علة التوحيد والاستسلام لمبود واحد لا شريك له « أُمَّتُكُمْ » أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى غير مختلفة . بل هى ملة واحدة . أى أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد . كما قال تعالى (٢) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى لا إله لكم غيرى « فَاعْبُدُونِ » أى ولا تشرکوا بى شيئاً .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما في قوله <sup>(١)</sup> ( إِنَّا وَجَدْنَا  
 ءَابَاءَنَا عَلَىٰ آثِمَةٍ ءَأْتَىٰ عَلَىٰ آثِمَةٍ « أى على دين مجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير  
 من المفسرين في هذه الآية ، وفي آية <sup>(٢)</sup> ( يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا  
 صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ \* وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ )  
 وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هي في قوله تعالى <sup>(٣)</sup> ( وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ  
 وَبِهِ يَعْذَلُونَ ) أى جماعة . وكما في قوله <sup>(٤)</sup> ( وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ  
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هي  
 بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم  
 اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السفين كما في قوله تعالى <sup>(٥)</sup> ( وَإِنَّ آخِرَنَا عَنْهُمْ  
 الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ) وفي قوله ( وَأَدَّ كَرَّ بَمَدٍّ أُمَّةٍ ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به ،  
 كما في قوله <sup>(٦)</sup> ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله <sup>(٧)</sup>  
 ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة ، على  
 ما ذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير  
 آية <sup>(٩)</sup> ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ) .

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥١ و ٥٢ ] .

(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨١ ] . (٤) [ ٣ / آل عمران / ١٠٤ ] .

(٥) [ ١١ / هود / ٨ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] .

(٧) [ ١٦ / النحل / ١٢٠ ] . (٨) [ ٣ / آل عمران / ١١٠ ] .

(٩) [ ٢ / البقرة / ٢١٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كَلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ )

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كَلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » أى تفرق الناس في دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشري رحمه الله : والأصل ( وتقطعتم ) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه يعنى عليهم ما أفسدوه ، إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقسمونه . فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ وَكِيلُونَ )

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ وَكِيلُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا في دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه في أمره ونهيه ، وهو مقر بوحداية الله ، مصدق وعده ووعيده ، متبرىء من الأنداد والآلهة ، فلا كفران لسعيه ، بل يشكر الله عمله هذا ، ويثيبه ثواب أهل طاعته . وقوله تعالى ( وَإِنَّا لَهُ ) أى لسعيه المشكور ( وَكِيلُونَ ) أى مثبته في صحيفه أعماله ، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من ( كفر فلان النعمة كُفراً وكفراناً ) وأوثر ( لا كفران ) على ( لا إنكفر ) للمبالغة . لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعي لإظهار الاعتقاد به . والآية كقوله تعالى (١) ( وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحوق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَحَرَّمَ عَلَيَّ قَرْيَةً أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ )

« وَحَرَّمَ عَلَيَّ قَرْيَةً أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله (٢) تعالى ( أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ أَقْرَأُوا أَنَّهُمْ إِلَىٰ هَاهُنَا لَا يَرْجِعُونَ ) وقوله (٣) ( فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ) وزيادة ( لا ) هنا لتأكيد معنى النفي من ( حرام ) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعمهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهن الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تنمة ما قبلها ، و ( لا ) فيها على بابها . وهى مع ( حرام ) من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القرية المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعى أحد . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا النظر . وفيه ما يحل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٩ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٣١ ] . (٣) [ ٣٦ / يس / ٥٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ أُمَّةٍ يَنسُلُونَ )  
 « حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة من  
 أجناسٍ شتى « وَهُمْ مِّن كُلِّ أُمَّةٍ يَنسُلُونَ » أى من كل نسل من الأرض يسرعون ،  
 متجندين لقهراً أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُوبِلُونَ  
 قَد كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ )

« وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهرة ، ودحر الباطل والكفر  
 « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ،  
 قائلين « يُوبِلُونَ قَد كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ »  
 أى لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإباء والعتاد . ثم أشار إلى شأنهم في الآخرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ )

[٩٩] ( لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ )

[١٠٠] ( لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ )

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ »  
 أى ما يرمى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ \* لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ  
 فِيهَا خَالِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب . ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أفضى إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى ترديد نفس تنفخ منه الضلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أى من الهول وشدة العذاب . ثم بين تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

[١٠٣] (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ

الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ » أى الخصلة الحسنى ، وهى السعادة أو التوفيق « أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم فى غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أى صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعمما يفرعهم « وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ \* لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أى للحشر كما قال تعالى ( وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ) « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، وتبشرون بنيل الثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٧ / النمل / ٨٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ ، وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ)

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[١٠٦] (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

[١٠٧] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى اذكره . أو ظرف لـ ( لا يحجزهم ) أو لـ ( تتلقاهم ) .  
والطى ضد النشر . وقوله « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب .  
واللام فى ( للكتب ) لام التبيين . ولذلك قرئ ( الكتاب ) بالإنفراد . أو بمعنى ( من )  
وفيه قرب من الأول ، أو ( الكتب ) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها .  
فاللام بمعنى ( على ) وهو ما اختاره ابن جرير<sup>(١)</sup> .

#### تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبي صلوات الله عليه ،  
كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما ، فأثر منكر لا يصح .  
قال ابن كثير<sup>(٢)</sup> : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبى داود .  
منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى .  
وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير<sup>(٣)</sup> وقال : لا يعرف فى الصحابة أحدا سمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وَكِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .  
 وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .  
 وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث . والصحيح عن ابن عباس  
 أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية<sup>(١)</sup> (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطى السماء كناية عن  
 انسكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من  
 الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا  
 عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى منجزين إياه . ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز النبي عنه ،  
 وإيرائه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ  
 يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين  
 منهم بمصيئته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . (الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام ،  
 ويقال : المراد به كل كتاب منزل . والذكر - قالوا - التوراة أو أم الكتاب . يعنى اللوح الذى  
 كتب فيه كل شئ قبل الخلق ، والله أعلم . وقوله تعالى « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ »  
 إشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . أو إلى العبرة  
 فى إرث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)  
 أى يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين  
 وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » أى وما أرسلناك بهذه الحنيفية  
 والدين الفطرى ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفى  
 جعله نفس الرحمة مبالغة جليلة . وجوز كون (رحمة) مفعولاً له . أى للرحمة ، فهو نبي الرحمة .

(٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٧ ] .

تنبيه :

قال الرازى : إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا . أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل السكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب . فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقايد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريباً له . قال الله تعالى (١) ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ) إلى قوله تعالى ( وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ) وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من النذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بيمته صلوات الله عليه ، في ( الشذرة ) التي جمعها في سيرته الزكية ، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذ بصيرته إلى مكفون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبيل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، ما بين مشبهه لله بخلقه ، وملحد في اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، وواد للبنات وأكل للدماء والميتات ، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتسكينة ، وتأليه للأخبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعي الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسر يسراً . فإن النوائب إذا تناهت انتهت ، وإذا توالت توالت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولا ليعتقهم من أسر الأوثان ،

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] .

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق .  
قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمُتَلَمِّينَ ) وقال تعالى (١) ( لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ وَأَنبَأَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ )  
[١٠٩] ( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّوْا أَذِنْتُ لَكُمُ عَلَى سَوَاءٍ ، وَإِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ )

[١١٠] ( إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْبَشَرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تُكْتُمُونَ )

[١١١] ( وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ )

[١١٢] ( قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ )

« قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ » أي ما يوحى إلى ، إلا استثنائه تعالى بالوحدانية في الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه في جنبه . فهو قصر دعائي « فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أي منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أي عن التوحيد « فَقُلْ أَذِنْتُ لَكُمُ عَلَى سَوَاءٍ » أي أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، تؤمن بها ونجني ثمرات سعادتها في الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيتكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمني علمه ، ولم يطلعني عليه كما قال « وَإِن أَدْرَىٰ » أي وما أدري « أَقْرَبُ » (١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٤ ] .

أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ « أَى من الفتح عليكم ، وإبراث أرضكم غيركم ، ولحوق النذل والصغار بعصيانكم » إِنَّهُ وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ « أَى فسيجزىكم على ذلك » وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ وَفِتْنَةٌ لَّكُمْ « أَى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة في افتتانكم . أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . ذ (الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة السبب ، أو هو بمعناه الأصلي . فهو استعارة مصرحة . وقوله تعالى « وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ » أَى تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتع بمعنى الإبقاء والتأخير « قُلْ » وقرئ ( قُل ) « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أَى افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى (١) ( رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ) « وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أَى من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

قال الرازى : قال القاضي : إنما ختم الله هذه السورة بقوله ( قل رب احكم بالحق ) لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان لهم الغاية . وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه . فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليمة له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم . فإذا أبوا إلا التمادى في كفرهم ، فعليك بالانتطاع إلى ربك ، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره . وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب . وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق .

تم الجزء الحادى عشر ، ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر ، وفيه تفسير سور: ٢٢ - سورة الحج ، و ٢٣ - سورة المؤمنون و ٢٤ - سورة النور و ٢٥ - سورة الفرقان

(١) [ ٧ / الأعراف / ٨٩ ] .